جمهورية مصر العربية
جامعة الزقازيق
المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم

مجلة
حضارات الشرق الأدنى القديم

دورية علمية محكمة

http://www.east.zu.edu.eg

الزقازيق

العدد الثانى – السنة الثانية– أكتوبر ٢٠١٦ م–الجزء الأول

رقم الإيداع ١٨٤٣٥ - الترقيم الدولى (٥٣٣٥ - ٢٠٩٠)

مطابع جامعة الزقازيق

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي

حضارات الشرق الأدنى القديم ومؤثراتها عبر العصور

الذى أقيم خلال الفترة من ١٣–١٥ مارس ٢٠١٦

بالمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم–جامعة الزقازيق

بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة بابل

ابرز مظاهر النهضة العلمية والتربوية

في حضارات الشرق الأدنى القديم
(حضارة وادي الرافدين أنموذجا)

أ.م.د أشواق نصيف جاسم **أ.م.د سلمى مجيد حميد**

جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الإنسانية–العراق

ابرز مظاهر النهضة العلمية والتربوية في حضارات الشرق الأدنى القديم (حضارة وادي الرافدين أنموذجا)

أ.م.د أشواق نصيف جاسم **أ.م.د سلمى مجيد حميد**

جامعة ديالى، كلية التربية للعلوم الإنسانية–العراق

المبحث الأول:

تمهيد:

تتبوأ منطقة الشرق الأدنى القديم مركزا حضاريا هاما، فهي تقع في قلب العالم القديم وعند ملتقى القارات الثلاث (آسيا وإفريقيا وأوربا)، وتتمثل هذه المنطقة الحضارية في بلاد مصر وسوريا والعراق والجزيرة العربية والأناضول. إذ تبلورت فيها البذور الأولى لحضارة إنسانية راقية. فهي الموطن الأول لثورة الإنسان الأولى حين تحول من جامع للطعام إلى منتج له اثر تعرفه على الزراعة وبناء القرى، وتوصل إلى بعض الأصول الخاصة بتفسير بعض مظاهر الحياة من حيث كنهها وغاياتها، كما توصل إلى إقامة الصناعات اللازمة لحياته، ثم توصل إلى حياة فكرية مستقرة وان لم تكن كاملة.ثم استطاع في أواخر الألف الرابع ق.م الوصول لحالة الاستقرار وتبلور ملامح النشاط الفكري الإنساني، وتطور النشاط الحضاري،وشيد المدن الجديدة، وتعرف لأول مرة على طريقة التعبير بالرموز التي قادته إلى الكتابة، وتعد معرفته الكتابة بمثابة الثورة الثانية في تأريخ البشرية. إذ دون حاجاته الاقتصادية وسجل مواقفه السياسية، وعبر عن مفاهيمه الفكرية ومبادئه الإنسانية.[١]

ويعد البحث في حضارات الشرق القديم بمثابة إعادة الاعتبار لدورنا في تأسيس وتطوير العلوم عبر العصور فنحن أصحاب أول حضارات علمية في التأريخ. ذلك أن تأسيس العلوم كان في الحضارة المصرية القديمة والحضارة الآشورية والبابلية القديمة ففي هاتين الحضارتين ظهرت معظم العلوم المعروفة حتى الآن.[٢]

---

[١] البدر، سليمان سعدون دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد (د.ت) بدون مكان نشر.

[٢] حلاق، محمود، العلوم عند العرب، أصولها وملامحها الحضارية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١١–١٦.

ويقينا أن حضارة وادي الرافدين والحضارة المصرية القديمة أقدم واهم حضارات وطننا العربي الكبير القديم وأن تأريخ الحضارة الإنسانية بما فيها الحضارة الغربية اشتقت أصولها وتغذت جذورها من هاتين الحضارتين في المجالات كافة وحتى الفنون المختلفة.[١]

تحدد إشكالية البحث في الكشف عن أبعاد الفكر العلمي والتربوي الذي كان يذكي سعي المصريون والبابليون وورثتهم الكلدانيون في أجواء العصور القديمة بشكل عجيب لأنهم سعوا نحو المجهول محاولين الوصول إليه وإخضاعه إلى عهود سحيقة بالقدم وذلك بالجمع بين أسمى النظريات الروحية والعلمية من ناحية وبين ممارسات تبدو وكأنها ضرب من ضروب الشعوذة من ناحية أخرى ويظهر ذلك واضحا من خلال تعلقهم بركائز معتقدات وممارسات شبه خيالية اجتهادا منهم للوصول إلى الحقيقة فتوصلوا إلى معلومات علمية متطورة، وكان يقينهم أنهم باكتشافاتهم تلك إنما يكتشفون سر الآلهة ومصير الإنسان.

وتأتي أهمية البحث من انه يحاول الكشف عن جوانب من حضارات الشرق القديم عموما وحضارة وادي الرافدين خصوصا والتي تستمد أصالتها من الجذور العميقة الممتدة إلى عشرات الآلاف من السنين وتأثير هذه الحضارات في بلدان الشرق الأدنى القديم والتي يحاول البحث ابرازاها، ليثبت إننا صناع العلم وقادرون على العودة مرة أخرى إلى المشاركة الإيجابية في الإبداع العلمي في العصر الحالي.

فالحديث عن الحضارات القديمة لايزال يشكل مجالا خصبا لكثير من المناقشات والتكهنات، سواء من حيث المناطق التي ظهرت فيها هذه الحضارات أو من حيث توقيت ظهورها، ومن ثم السبق الزمني لكل منها.

وتود الباحثتان في هذا المقام التنبيه إلى أن هذا البحث قد لايكون حصرا تاما لكافة الحضارات التي ظهرت في الشرق الأدنى القديم أو لترتيبها الزمني.

أما أسلوب البحث فقد اعتمدت الباحثتان الأسلوب الوصفي النظري الذي يعتمد على جمع المعلومات عن مظاهر النهضة العلمية والتربوية في حضارات الشرق الأدنى القديم بصورة عامة وحضارة وادي الرافدين بصورة خاصة ومدى تأثير حضارة وادي الرافدين بحضارات الشرق الأدنى القديم.

---

[١] البدر، المصدر السابق، ص ٢١.

وجدير بالإشارة أن المجال في هذا البحث الموجز لا يتسع إلا انتخاب القليل من المظاهر الحضارية القديمة مع الإشارة إلى أهم سماتها العامة دون الخوض في تفصيلاتها الدقيقة.

ابرز مظاهر النهضة العلمية في حضارات الشرق الأدنى القديم:

يعرف الشرق الأدنى القديم اصطلاحا بأنه الأراضي التي تقع بين بحر قزوين والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود وبين المحيط الهندي والأراضي المجاورة لشمال إفريقيا، كما يمتد في الأجزاء الإفريقية، والأسيوية أو ما يسمى بآسيا الأمامية، وهذان الجزءان منفصلان عن بعضهما بمنخفض البحر الأحمر، وقد شغلت الزاوية الشمالية الشرقية للقارة الإفريقية الأجزاء الإفريقية للشرق الأدنى القديم كما شغلت شبه الجزيرة العربية الواسعة كل النصف الجنوبي من الأجزاء الآسيوية للشرق القديم (آسيا الأمامية).[١]

وفي هذه المنطقة ظهرت المنجزات الحضارية الأولى للإنسان ففي بلاد وادي الرافدين بلغت الحضارة السومرية أوج بروزها، وتعد أوراك مدينة البطل الأسطوري كلكامش المركز الأكثر تعبيرا عن الثقافة التي حملتها السومريين الذين اشتهروا ببناء الزقورات من الحجر وحملوا كتاباتهم التي تشير إلى أسماء الإلهة التي أقاموا لها المعابد،فيما اشتهر المصريون في العمارة وبناء المعابد والمدافن وما احتوته من كتابات وزخارف ورسوم ولفائف بردي والمكتبات القديمة وأرشيفها، فيما اشتهر الفلسطينيين بصناعة الخزفيات والأشكال الميسانية، أما اليمن فكانت الأغنى والأكثر ازدهارا بين مناطق الجزيرة العربية أنها (العربية السعيدة) وهي طريق لبخور والصموغ الثمينة، إذ أرسل النبي سليمان بعثات بحرية لليمن للحصول على الذهب.[٢]

وفي سوريا ظهرت أبجدية اوغاريت التي يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد مكتوبة بالمسمارية وتضم ثلاثين حرفا، وهي من أهم وأقدم الأبجديات وأكملها.[٣]

---

(١) افانا سيفا ف.ك،ديكانوف ي.م، وآخرون، تاريخ الشرق القديم، نشوء المجتمعات الطبقية القديمة والمواطن الأولى للحضارات العبودية، ترجمة الدكتور محمد العلامي، ط١، دار الفكر، عمان، ٢٠١٢م، ص ص ٣٠ -٣١.

(٢) نخلة، منى يوسف، علم الآثار في الوطن العربي، منشورات جروس برس، لبنان،(د.ت)، ص ص ٣٩ — ١٠٠.

(٣) محمد، عبد الهادي، حضارات وممالك بلاد وادي الرافدين، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١١م، ص٢١٦.

وفي مجال العقائد الدينية ظهرت فكرة التوحد لأول مرة على يد اخناتون في مصر كما ظهرت أولى الرسالات السماوية في سوريا ليعقبها ظهور الرسالتين السماويتين الآخرين مرة في سورية ومرة في شبه الجزيرة العربية، كما ظهرت أول السدود المستخدمة في التحكم بالمياه في وادي الرافدين واليم[١].

حضارة وادي النيل:

مصر بلد سخي عريق أطلق أجدادنا الأوائل على أرضها اسم (كيمة) أو (تاكيمة) بمعنى السوداء والسمراء والخمرية رمزا منهم إلى لون تربتها ودسامة غرينها وكثافة زرعها، واعتبروا طابع السواد فيها ميزة تفرق بينها وبين اصفرار الصحراء المحيطة بها وأطلقوا عليها اسم (دشرة) بمعنى الحمراء إشارة منهم إلى شدة جدبها، فكان فراعنتهم يقول في أحاديثه (عملت على أن تصبح كيمة بأهلها فوق رأس كل ارض) كما أطلق على ارض وادي النيل تسميات عدة، بيد إن اسم مصر أمر لا يقارن بهذه الأسماء مهما كان من أمر فقد عرفه العالم الخارجي ورددته نصوصه أكثر مما ردده المصريون أنفسهم فقد ورد في رسالة وجهها أمير كنعاني الى فرعون مصر خلال الربع الثاني للقرن الرابع عشر ق.م أشار فيها إلى انه قد يضطر إزاء تهديد جيرانه إلى إرسال أهله إلى (ماتو مصرى) أي ارض مصر.[٢]

ولابد لنا أن نشير إلى وصف عمرو بن العاص مصرفي رسالة وجهها إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بأنها تربة سوداء وشجرة خضراء بين جبل اغبر ورمل أعفر قد اكتنفها معدن رفقها ومحط رزقها ما بين أسوان إلى منشأ البحر في سح النهر مسيرة الراكب شهرا. كأن ما بين جبلها ورملها بطن اقب وظهر اجب. يخط فيه نهر مبارك الغدوات، ميمون البركات. يسيل بالذهب ويجري على الزيادة والنقصان كمجاري الشمس والقمر. له أيام تسيل له عيون الأرض وينابيعها مأمورة إليه بذلك. حتى إذا ربا وطمى واصلخم (اشتد) لججه واغلولب عبابه كانت القرى بما أحاط بها كالريا.لا يتوصل في بعضها البعض إلا في السفائن والمراكب. ولا يلبث إلا قليلا حتى يلم كاول ما بدا من جريه وأول ما طما من درته حتى تستبين فنونها ومتونها.[٣]

---

[١] يحيى، لطفي عبد الوهاب،تاريخ العلم عند العرب، مدخل حضاري في تاريخ العلم قبل الإسلام،دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٢١.

[٢] صالح، عبد العزيز،حضارة مصر القديمة وآثارها. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦ م، ص ص ٦-٩.

[٣] حامد، إسماعيل، الحضارة الفرعونية أم الحضارات، مكتبة النافذة، الجيزة، ٢٠١١م، ص ٣.

ولهذا سيكون لزاما على الباحثتان أن تتحدثا عن أهم المظاهر مدنية مصر من خلال ذكر الخطوط العامة لمقومات الحضارة المصرية.

و لا ريب أن الإسهامات الحضارية المصرية واضحة جلية لاتخطأها العين في شتى مجالات الحياة والعلوم، إذ برع المصريون في علم الفلك اخترعوا منذ القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد (التقويم) وجاء الاختراع استجابة لنظام الفيضان وظروف الزراعة إذ لاحظوا ان الفيضان ظاهرة سنوية تتكرر كل عام بانتظام، وان الشعرى اليمانية تظهر عند الأفق مع شروق الشمس في نفس اليوم الذي يصل فيه الفيضان إلى منف وهليوبوليس، إذ كان يعيش الفلكيون المصريون الأوائل وعلى هذا الأساس رتبوا جميع العمليات الزراعية واخترعوا السنة المكونة من ٣٦٥يوما وقسموها إلى اثني عشر شهرا والشهر إلى (٣٠) يوما تضاف إليها الأيام الخمسة الباقية التي خصصوها للأعياد يلهون فيها ويطربون.

وهذا هو التقويم القائم حاليا بعد تعديلات طفيفة أدخلت عليه منذ العصر الروماني. وقد ساعدتهم المعارف الفلكية على بناء الهرم الأكبر في مواجهة الشمال بدرجة دقة لايتجاوز الخطأ فيها جزءا من الدرجة. أما في الطب فتشير إحدى البرديات الثمانية التي تعد أشهر المكتشفات الأثرية في علم الطب المصري القديم وهي بردية ادوين سميث، وكتبت حوالي عام ١٥٥٠ ق.م واشتملت على (٤٨) مشاهدة واقعية في جراحة العظام والجراحة العامة مقسمة تبعا لتقسيم الجسم من الرأس فالأنف والفك وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والإضلاع والصدر والترقوة والكتف واليدين حتى العمود الفقري والاهم من ذلك طريقة العرض ذلك العرض العملي الذي يتسم بالدقة وكأنك أمام وصف علمي يجريه طبيب معاصر لمرضاه، وهذه ملامح التفكير العلمي التجريبي المنظم أوضح ما تكون هنا. إذ يبدأ العالم بالملاحظة (المشاهدة) ثم تحديد المشكلة (المرض) ثم حل المشكلة في وصف العلاج المناسب للحالة. والمدهش أن لدينا الآن قائمة تضم حوالي ثلاثين طبيبا متخصصا من مصر القديمة كان أقدمهم (حسي رع) ا لذي يرجع تأريخه إلى الأسرة الثالثة وكان من اواخرهم الطبيب (ون نفر) ويرجع تأريخه إلى الأسرة الخامسة،ولم تغفل الآثار المكتشفة دور المرأة الطبي،وتوجد لوحة لطبيبة تدعى بشست (peseshet) التي كانت مشرفة على الأطباء وحائزة على الشرف بين أطباء الملك.

التقط اليونانيون الخيط من حضارات الشرق القديم عامة ومن المصريين على وجه الخصوص. ويكفينا هنا شهادات هيرودوت من المؤرخين وأفلاطون وأرسطو من الفلاسفة (إذ لم يعد لدينا شك في أن

عبقرية طاليس الفلكية وعبقرية فيثاغورس في الموسيقى والرياضيات هي النتاج المباشر لزيارات هؤلاء لمصر وتعلمهم في معاهدها العلمية).[١]

كما عرف المصريين أول ساعة في العالم وجدت في مقبرة احد الملوك المصريين وهو تحتمس الثالث وهي معروضة الآن في متحف برلين ففي الفجر كانت الساعة توجه نحو الشمس فكان ظل القضيب المستعرض يقع تقريبا على الخط (العلامة) السادسة،ومعنى ذلك أنها الساعة السادسة قبل الظهر، وبارتفاع الشمس في السماء يتضاءل الظل، حتى إذا كان الظهر، أصبح الظل صغيرا جدا وعندئذ تدار الساعة إلى الجهة المضادة، وبزوال الشمس يستطيل الظل وتدل العلامات على ساعة ما بعد الظهر، حتى إذا كان وقت الغروب، يعود الظل إلى اصغر أطواله كما كان المصريين يعرفون طريقة قياس مساحة المستطيل قياسا دقيقا،وذلك بضرب عدد وحدات القياس التي في القاعدة في عدد الوحدات التي في الارتفاع، وأمكنهم بالتالي حساب مساحة المثلث وهي عبارة عن نصف مساحة المستطيل المتحد معه في طول القاعدة والارتفاع.[٢]

المبحث الثاني:

وصف عام لبلاد وادي الرافدين:

على الطرف الأعلى من الخليج العربي تمتد ارض العراق سهلا منبسطا واسعا شهد من ألوان الحياة وصور الحضارات وأحداث الزمن مالم تشهده ارض أخرى،وقد تعاقبت فصول واسعة النطاق من الإحداث التي تفاعل معها الإنسان فأنتج مغناة حضارية متنوعة الحوادث إلا أنها تنبض بقلب واحد هو الإبداع والتجدد وإرادة الحياة.

يجري في العراق نهراه التوأمان دجلة والفرات مستمدين معينهما من المياه العذبة الرقراقة المتدفقة من الينابيع الصافية في الأطراف ويجريان من الشمال إلى الجنوب يلتقيان حينا ويبتعدان حينا أخر ليلتقيا في شط العرب الذي يمد الأرض بمعين الحياة لتزهو فيها حقول الحبوب والخضار وتنضر بساتين النخيل وأشجار الفواكه الباسقة فتجعله من أخصب سهول الدنيا وأعنى بقاع الله في الأرض.

---

(١) النشار، مصطفى حسن، تاريخ العلم عند العرب، دار المسيرة، الأردن، م٢٠١١، ص ص ٩٠ – ١٠.

(٢) الموسوي، هاشم عبود، موسوعة الحضارات القديمة، دار الحامد للنشر، عمان، ٢٠١٣م، ص ص٥٨ –٥٩.

وتطل على الأطراف الشمالية الشرقية من سهول العراق رواب تقف كالحصون الحارسة ومن ورائها سلاسل الجبال العالية تمتد متوازية حينا ومتلاقية حينا آخر تداعبها الغيوم و تتوج بعض هاماتها الثلوج وتكسو سفوحها الخضرة وهي تقف شامخة إلى العلا راسخة كالحارس الأمين لتحمي أرضه وحضارته وتفتح له سبل الاتصال بما ورائها بما ينساب بينها من وديان ممرعة ومروج مخضرة، وتتصل أطرافه الجنوبية بمياه الخليج العربي وأمواجه التي تداعب أرضه وتفتح له نوافذ رحبة تذهب به بعيدا إلى أقطار الهند والصين وما بينهما من بلاد غنية ساحرة أما أطرافه الغربية فمفتوحة إلى جزيرة العرب وأهلها وكانت عبر التاريخ تمدهم الميرة والغذاء وتستمد منهم الأفكار وتشد العراق إليها فتجعله جزءا منها مكملا لها بسكانه وأهله ولغته، ويكفي العراق فخرا أن أبي البشرية ادم عندما اخرج من الجنة وانزل من السماء كان أول ما وطئت قدماه ارض العراق وهذا يدلل على أن العراق أقدم موطن للبشرية. ولا غرور إذا قلنا بأن حضارة ميزوتاميا (ارض ما بين النهرين) تركت آثارها في الحضارات البشرية اللاحقة والمعاصرة. فالعراقيون القدماء أول من اكتشف الزراعة والكتابة ووضعوا أسس الرياضيات وعلم الفلك، وتوصلوا إلى نظرية فيثاغورس قبل فيثاغورس بأكثر من ١٥٠٠عام وبنوا أول مجتمع سياسي منظم (دول المدن السومرية) وأقاموا نظام الملوكية، واوجدوا نظرية الحق الإلهي المقدس للملك قبل توماس هوبز الإنكليزي بأكثر من ٤٥٠٠عام، وبنوا الدولة الوطنية الموحدة (سرجون /حمورابي) وأهدوا البشرية أول قانون منظم للحياة الاجتماعية شريعة حمورابي (الذي شكل القانون العراقي فيما بعد وامتدت أثاره للحضارة المعاصرة) هذا بعد أن ولدت هذه الأرض أول حاكم مصلح في تأريخ البشرية (اوركاجينا)، وكتبوا أولى الملاحم البطولية الحية (ملحمة كلكامش) وابتدعوا القصص على لسان الحيوانات قبل ايشوب الإغريقي بأكثر من ١٠٠٠عام،وأسسوا نظاما شاملا للدين شكل أساس الديانات الرئيسة الثلاث، وعلموا البشرية العطلة الأسبوعية (السبت البابلي) وتركوا أول كتاب مقدس (ملحمة الخليقة البابلية) لديانة عالمية شكلت مصدرا رئيسا للديانة اليهودية، وبناة هذه الحضارة (السومريون) هم أصل العراقيين وأجداد النبي إبراهيم الخليل (عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام) الأب الأكبر لليهود والمسيحيين وللعرب. وبسبب هذه المزايا كان العراق عرضه لأطماع الغزاة الاخمينيين والفرس والساسانيين وكل منهم حاول معتديا أن يجعل مقر حكمه وعاصمة دولته في وسط العراق، إلا أن العراق بقى شامخا أصيلا ورد كل الموجات الغازية ليظل معتزا بسيماه العربية.[١]

حضارة وادي الرافدين:

---

[١] الدباغ، تقي وآخرون العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣م، ص ص٢١ –٢٤.

ارض ما بين النهرين. تسمية أطلقت على البلاد التي يحدها نهرا دجلة والفرات (عراق اليوم) وعلى هذه الأرض ازدهرت حضارات عظيمة منها السومرية والاكدية والبابلية والآشورية وغيرها، وكلها حضارات انتشر نفوذها إلى البلاد المجاورة ابتداءا من الألف الخامس ق.م[١].

وتعد حضارة وادي الرافدين أول حضارة عالمية عرفها الإنسان فهي حضارة راقية ومتكاملة الجوانب والإبعاد قلما ضاهتها حضارة من الحضارات القديمة الأخرى، بل هي المعين الأول لجميع الحضارات اللاحقة في شتى مجالات الفكر والأدب والعلوم والفنون. و للعراق في مسيرته الإنسانية مكان موغل في القدم يبدأ من أن انحسر الطوفان واستوت سفينة نوح على الجودي، وهو الجبل المطل على العراق في شماله وتؤيد الأدلة التاريخية أن الإنسان في العراق احتفظ بنشاطه وحيويته منذ أقدم الأزمنة، كما انه صمد لما أصابه من محن وشدائد أزال الأخف منها كثيرا من الأمم، وإذا كان تنوع الأحداث في طبيعتها وقوتها انعكست على تاريخه فجعلت فيه حقبا حية مزدهرة، وأخرى خامدة ضامرة فان الثابت في هذه المسيرة هو إن مزروعاته لم تذو، ومساكنه لم تقفر وجذوة الحياة في أهله لم تطفأ، وأفاق نظرهم لم تتبدل، ومثلهم لم تندفن وقد مرت عليهم في تاريخهم الطويل حقب قيدت فيها حريتهم وحد نشاطهم فركدو إلا أنهم لم يموتوا، وعملت قوى أجنبية على فرض إرادتها على أهله، وغزته ثقافات غريبة عنه وكان بعض هذه القوى والثقافات مدعوما بجيوش مقاتله وأسلحة فاتكة، غير إن أي منها لم يفلح في تبديل سمته أو قلب مساره، فاحتفظ أهله بسماتهم الخاصة المميزة التي احتفظوا بها مع أحوالهم العربية متجلية في لغتهم وأساسا لكيانهم القومي وإذا كانوا قد تأثروا ببعض ما وفد عيهم، فأنهم وجهوا هذا التأثير لاغناء ثقافتهم وتنميتها مع احتفاظها بأسسها وجوهرها وكان ما أعطوه للأجانب في ذلك أوسع، ويحفل التاريخ بأمثلة عن غزاة دخلوا العراق مع ثقافاتهم الأجنبية، فما لبثوا أن تعلموا لغة أهله وكتبوا بخطهم وقدسوا الآلهة واحترموا معابدهم ولما عم الإسلام وساد في العراق اقبل أصحاب الديانات الأخرى على اعتناقه بما في ذلك المغول الغزاة. وقد عنيت حضارة وادي الرافدين بالمعارف الطبيعية والرياضية والطبية وقد دللت المكتشفات الأثرية على معارفهم الواسعة في هذه المجالات كما دللت الدراسات الحديثة على الأثر الذي تركته هذه المعارف بالحضارتين اليونانية والفارسية وان كثيرا مما نسب إلى هاتين حضارتين إنما انتقل إليها من العرب البابليين والفينيقيين والآشوريين والمصريين فاستعان العلماء اليونان بالهندسة البابلية وبعلم الفلك البابلي، كما تأثروا بالطب وعلم النبات والحيوان والمعادن وغيرها.[٢]

---

[١] النشار، مصطفى حسن، مصدر سابق ص ٩٦.

[٢] الدباغ، تقي وآخرون، مصدر سابق، ص ص ٧– ٨.

حضارة وادي الرافدين أقدم حضارات العالم شواهد وأدلة:

لقد ساد في العالم ولا يزال إشاعة مفادها أن الإغريق هم أقدم الحضارات وأكثرها أثرا في العالم ولكن بعد أن أظهرت الحفريات عن آثار العراق القديم، كان لابد من أن ينتبه المثقف العربي لكونه وريث شرعي لتلك الحضارة إلى حقيقة مفادها أن حضارة وادي الرافدين هي أقدم حضارات العالم. والسند في ذلك عمر حضارة العراق التي تسبق بعشرات السنين حضارة النيل والهند واليونان والصين وقد بدا ذلك واضحا منذ أكثر من قرن ونصف بعد اكتشاف آثار سومر وأكد وبابل وآشور والممالك التي كانت سائدة في العراق القديم. وان الحضارات التي تلتها أسست فوقها، ولم تكن حضارة وادي الرافدين من أقدم الحضارات فحسب، بل كانت أكثرها شهرتا واتزانا وأصالة. وستسوق الباحثتان فيما يأتي بعض الشواهد والأدلة التي تبين عظمة هذه الحضارة وأصالتها.

١- يقول الأستاذ طه باقر بعد أن قضى الإنسان القسم الأعظم من حياته في أطوار التوحش والهمجية في عصور ما قبل التاريخ والمقدرة بنحو مليوني سنة دخلت البشرية اخطر تجربة بانتقالها إلى طور الحضارة الناضجة لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال حضارة وادي الرافدين ووادي النيل في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد إلى حياة المدنية.

٢- يؤكد الدكتور احمد كمال زكي بان الدارسين يقرون بان المنطقة الهلالية الشكل أي بلاد مابين النهرين كانت مهد الحضارة منذ فجر التاريخ.

٣- وقبلهما قال العلامة (كريمر) عالم السومريات ولنا من الأسباب المعقولة ما يحملنا على الاستنتاج انه ظهر في غضون الألف الثالث قبل الميلاد طائفة من المفكرين والمعلمين السومريين حاولوا أن يصلوا إلى إجابات مرضية عن المسائل التي أثارتها تأملاتهم في الكون واصل الأشياء فكونوا آراء وعقائد في أصل الكون والإلهيات اتسمت بقدر عظيم من الإقناع العقلي، وأصبحت آراؤهم ومعتقداتهم فيما بعد عقائد ومبادئ أساسية لكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم.

٤- ويستغرب (كريمر) أن الحفريات التي كانت تتم قبل حوالي قرن كانت تتبع آثار الآشوريين والبابليين، ولم يكن يخطر ببال المنقبين إنهم سيعثرون على حضارة أقدم، ولم يكن السومريون ذكرا في آثار البابليين والآشوريين مما يدلل على أن ذاكرة تلك الحضارة قد نسيت من قبل الحضارتين البابلية والآشورية اللتان كانتا معاصرتان لحضارة وادي النيل، ولن يتم نسيان ذكرى حضارة إلا إذا مضى عليها آلاف السنين.

٥- لقد عرفت الحضارتان البابلية والأشورية من خلال كتابات الإغريق والرومان وما كتبه العبريون في كتاباتهم من خلال السبي وقبله، وتحريف معتقدات أهل العراق، ونسبها إليهم على أساس أنها كانت سماوية.

٦- وإذا تجاهلنا المخطوطات التي كانت تكتب على الأوراق، وذهبنا إلى النظر للألواح التي حفر عليها بالكتابة المسمارية، والتي يصعب محوها، أو تزييفه، فإننا سنجد عددا الألواح التي تم اكتشافها لغاية عام١٩٩٥ يزيد على مليوني لوح طيني مشوي غير التي لم تكتشف بعد وما نقش عليها لاشك انه يبهر القارئ ويجعله يقف احتراما لها.[١]

بان اليونانيون على العكس من الكلدانيين كانوا متخوفين من وضع أنظمة جديدة وذلك من خلال نظريات سابقيهم، كما ان بطليموس يستشهد دوما بالكلدانيين ولكن دون تسمية علمائهم.[٢]

يستدل مما سبق أن من حق عالم السومريات (كريمر) أن يطلق على احد كتبه المهمة عنوان (التاريخ يبدأ من سومر) بل قلما نجد أي كتاب علمي يتحدث عن تاريخ العلوم والمعارف إلا وكان للعراقيين القدماء نصيب كبير من فصولها الأولى.

التربية في بلاد وادي الرافدين:

لابد لنا من الالماع إلى جانب مهم من جوانب حضارة وادي الرافدين إلا وهو التربية، التي تمثل الوجه الحضاري والفكري لبلاد وادي الرافدين وفيما يأتي عرض لأبرز لمظاهر التربية والتعليم في بلاد وادي الرافدين.

حضارة جنوب العراق القديم:

عصر حضارة الوركاء هو العصر الحضاري التالي لعصر حضارة العبيد في العراق القديم وتنسب هذه الحضارة إلى موقع الوركاء واسمها القديم أوراك، وتتمثل بالعديد من المواقع الأثرية في جنوب العراق مثل اريدو وأور.

كما انتشرت حضارة الوركاء في قسمها المبكر في شمال العراق، وظهر ذلك على وجه الخصوص في مواقع تبة جاورا ونينوى وتل جراي رش بمنطقة سنجار ولعل أهم المظاهر الفكرية لهذه

---

(١) محمد، عبد الهادي، مصدر سابق، ص١٦ -١٧.

(٢) روثن، مارغريت، علوم البابليين، ترجمة يوسف حلمي، دار الرشيد للنش، بغداد، ١٩٧٠ م، ص٣١ ١.

المرحلة من تاريخ العراق هي التوصل إلى ظاهرة التعبير بالرموز التي أدت إلى اختراع الكتابة ألتي تعد من أهم بوادر عناصر النقلة إلى بداية العصر التاريخي، ويطلق على هذه المرحلة مرحلة ما قبل الكتابة وتقسم إلى قسمين احدهما مبكر ويشمل الإنتاج الحضاري للمرحلة الأخيرة من عصر حضارة الوركاء، والآخر أكثر تطورا وهو ما يطلق على إنتاجه الحضاري تسمية حضارة جمدة نصر وتتصل التسجيلات الكتابية لحضارة الوركاء بالأغراض الاقتصادية وهي قوائم تتضمن إحصائيات خاصة بممتلكات المعبد من الحقول والأغنام وغيرها ودخله من المحاصيل والسلع المختلفة، وما يصرف عن طريقه، وقد كتبت هذه الوثائق على ألواح طينية بواسطة قلم من البوص حفرت به العلامات الكتابية على المادة الطينية وهي لاتزال طرية، وكانت أقدم العلامات الكتابية صورية وعبرت كثير من العلامات عن اختزال الصور الكاملة إلى خطوط بسيطة أو أجزاء منها فقط.[١]

وبذلك تكون الوركاء قد عرفت أصول التدوين قبل أية منطقة في العالم وذلك قبل أكثر من خمسة آلاف سنة، إذ عثر في الطبقة الرابعة (ب) من المدينة المذكورة وفي احد معابدها على أكثر من ألف رقيم تتضمن وثائق اقتصادية بأقدم أنواع الكتابة وبأبسط أشكالها وهي الكتابة الصورية.[٢]

السومريون:

لقد اجمع المعنيين بالدراسات الحضرية على أن السومريين هم بناة أقدم حضارة في تاريخ البشرية فقد ابتكروا الكتابة في حدود (٣٢٠٠ ق.م) وعمدوا إلى نشرها فقامت في بلاد سومر أولى المدارس في تاريخ البشرية.[٣]

١- وتمثل بلاد سومر القسم الجنوبي من العراق، إذ استقر السومريون على ضفاف دجلة والفرات في الألف الرابع قبل الميلاد وأصلهم غير معروف وان كان بعض العلماء يرى أنهم انحدروا من جبال تقع شمال وشرق العراق واتخذوا مدينة سومر عاصمة لهم وشهدت بلاد وادي الرافدين استقرار زراعيا نتج عنه:
٢- معرفة الكتابة التي دونت بها الحوادث المختلفة وهي الكتابة المسمارية التي حوافها شكلت على هيئة المسمار أو القمع.

---

(١) سليم، احمد أمين، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر، العراق، إيران، دار النهضة، مصر، ٢٠٠٩ م، ص ٢٤٢.

(٢) إسماعيل، بهيجة خليل، حضارة العراق، ج١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٢٢١.

(٣) محمد، عبد الهادي، مصدر سابق، ص٦.

٣- تطوير الفنون التشكيلية والتطبيقية والرسم والتصوير والنحت.
٤- معرفة أسس العمارة على اختلاف أنواعها وخاصة فن العمارة الديني.
٥- معرفة الأسس والأشكال الأساسية لنظام الحكم.(١)

ولابد للباحثتان من التنويه إلى ما استشفتاه بشان طرائق التدريس ووسائله من خلال الإشارة لما أدلى به نخبة من العلماء العراقيين المتخصصين بقولهم: من المعروف أن الكتابة المسمارية كانت معقدة جدا مقارنة بالكتابات الأبجدية. فقد ضمت أكثر من خمسمائة علامة مسمارية في ظهورها المختزل وكان لكل علامة أكثر من قيمة صوتية لذا اضطر الكتبة إلى ابتداع وسائل لتسهيل مهمة تعلم الكتابة والقراءة فاستخدموا العلامات الدالة التي كانت توضع قبل أو بعد الأسماء للدلالة على ماهيتها وصنفها كأن وضعوا علامة النجمة أمام اسم كل اله، وعلامة الأرض بعد اسم كل مدينة، ونتيجة لذلك نشأت أول المؤسسات التعليمية في تاريخ الحضارات والتي أطلق عليها اسم المدرسة وباللغة السومرية (أي – دوبا) والتي كانت مؤسسة خاصة، وكان الهدف من التعليم عمليا بحتا،حيث أعدت المدرسة الكتبة ومساحي الأراضي، ثم صار التعليم أكثر عمومية وتحولت المدرسة إلى مركز أكاديمي، وتم تدريس جميع فروع المعرفة التي وجدت في تلك الفترة كالرياضيات والقواعد والغناء والموسيقى والقانون والطب وعلم الحيوان وعلم النبات وجداول المؤلفات الأدبية.(٢)

ويؤكد العلامة (كريمر) قائلا: ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاستنتاج، انه ظهر في غضون الألف الثالث قبل الميلاد طائفة من المفكرين والمعلمين السومريين، حاولوا أن يصلوا إلى إجابات مرضية عن المسائل التي إثارتها تأملاتهم في الكون واصل الأشياء فكونوا آراء وعقائد في أصل الكون والإلهيات، اتسمت بقدر عظيم من الإقناع العقلي، وأصبحت آراؤهم ومعتقداتهم فيما بعد عقائد ومبادئ أساسية لكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم.(٣)

الأكديون:

وهم أقوام سامية استقرت في وادي الرافدين حوالي ٤٠٠٠ ق.م، وشهد العراق في عصرهم انتعاشا اقتصاديا بسبب توسع التجارة خارج منطقة الخليج العربي، ظهر سرجون الأكدي في كيش واخضع الأناضول وعيلام والخليج العربي تحت حكمه في إمبراطورية شاسعة الأطراف اتخذ من أكد عاصمة

---

(١) الموسوي، هاشم عبود مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٢) افانا سيفا ف.ك، ديكانوف ي.م، وآخرون مصدر سابق، ص٣٣٠.

(٣) الموسوي، هاشم عبود، المصدر السابق، ص ١٤٩.

لها، حكم سرجون (٥٦) عاما جلب خلالها الرخاء للشعب واستتب الأمان في كل مكان، ونشر المعارف والفنون والعلوم والكتابة، وقد وجدت ألواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري وباللغة الاكدية في كثير من المستعمرات البعيدة كالأناضول وعيلام، وفي زمنه ترقت الفنون الجميلة، ويوجد في المتحف العراقي رأس تمثال من البرونز وجد في نينوى لعله يمثل سرجون الاكدي.[١]

البابليون (١٨٩٤ ق.م):

دوى صدى شهرة البابليون وورثتهم الكلدانيون في أجواء العصور القديمة والوسطى بشكل عجيب، لأنهم سعوا نحو المجهول محاولين الوصول إليه وإخضاعه في عهود سحيقة من القدم، وذلك بالجمع بين أسمى النظريات الروحية من جهة وبين ممارسات تبدو وكأنها ضرب من الشعوذة من ناحية أخرى[٢] والبابليون شعوب سومرية أكدية وامورية اختلطت وشغلت بلاد سومر ابتداء من الألف الثاني قبل الميلاد. وسموا بالبابليين نسبة إلى بابل الواقعة جنوب بلاد ما بين النهرين والتي هيمنت على بلاد مابين النهرين الوسطى واندمج تاريخ البابليين مع تاريخ عاصمتهم التي أصبحت مدينة أسطورية.[٣]

بلغت حضارة العراق في عهد البابليون أوج عظمتها وازدهارها وارتقت العلوم والمعارف والفنون وكانت البلاد تحكم بقانون واحد سنه الملك حمورابي لجميع شعوبها ولاتزال مسلته موجودة في متحف اللوفر بباريس وتعد واحدة من أقدم واشمل القوانين في وادي الرافدين والعالم وتحتوي هذه المسلة على ٢٨٢ مادة تعالج مختلف شؤون الحياة.[٤]

كما عرف الكلدانيون المدارس وهم آخر ممثلين للعلماء البابليين، بل ورثتهم الشرعيين، وكان السحرة المعلمين الأول لهذه المدارس، وكانت المعابد المراكز الرئيسة للنشاط الفكري وقد انقرض الكلدانيون غير أنهم أورثوا حضارة متقدمة وكانت لغتهم التي علمت كلغة ميتة هي التي لا تستخدم وحدها في الاحتفالات الدينية، وقد أسس الآشوريين والبابليين العديد من المدارس وكانت التربية مقصورة على الطبقات العليا، غير أن الطفل الذكي يستطيع أن يبلغ شئنا عاليا من الثقافة يتيح له أن يصل إلى وظائف الدولة وكان التعليم تعليما فنيا وعمليا بالدرجة الأولى هدفه تكوين تجار وكتاب، كما

---

(١) محمد، عبد الهادي، مصدر سابق، ص١٧٩ – ١٨٠.

(٢) روثن، مرغريت، مصدر سابق، ص ٩.

(٣) نخلة، منى يوسف، مصدر سابق، ص ٤٥.

(٤) محمد، عبد الهادي، ٢٠١١م، مصدر سابق ص٦.

سادت الدراسة الحرة والتي أنتجت اختصاصيون في الأدب الديني وفي الفلك والتنجيم والتاريخ وتم التعمق خاصة في علوم التجارة وعرف القوم نظاما بارعا في المحاسبة. وقد ضمت المدن الكبرى مكتبات كتبها رقاع أو اسطوانات حفرت عليا الحروف المسمارية وقد سمح باكتشاف بعض الكتب المدرسية المكتوبة للطلاب التي تعرفهم على حضارات الشعوب الأخرى، وكان منهج الدراسة يشمل الدين والنحو والحساب والتاريخ والجغرافيا وكانت كتب الجغرافية كتب منظمة ومنهجية وكان جدول الضرب يستخدم في المدارس كما عرف القوم النظام العشري في العد ومبادئ القراءة التي كانت تعلم عن طريق المقاطع التي تجمع لتكون الكلمات وكان ذلك بداية السير نحو الأبجدية، وقد كشفت الحفريات عن طائفة من المؤلفات حول شتى جوانب المعرفة الإنسانية.

ومن المعلوم أن السحرة كانوا بارعين في العلوم كلها وهم المؤسسين الأوائل لعلم الرياضيات والفلك، إذ درسوا النجوم ليستخلصوا نبوءات متصلة بما يصيب الإنسانية من خير وشر، ووضعوا مبدأ الأسبوع المؤلف من سبعة أيام واكتشفوا دوائر البروج وعلاماتها وحددوا طول السنة وكان أدب الرسائل عندهم ثريا وما تبقى من أجزاء منه يمثل ثروة تاريخية هائلة.

وتشمل شرائع الكلدانيين ومن جاء بعدهم من البابليين والآشوريين على قوانين حكيمة قائمة على العدل والاستقامة وخير مثال عن هذه الشرائع شريعة حمورابي الشهيرة (٢٣٤٢ –٢٢٨٨ق.م) أما الطب فكان اقل ازدهارا لان القوم يردون الأمراض إلى اثر الأرواح الشريرة ويلجئون بالتالي في معالجتها إلى التعاويذ والأناشيد الدينية، كما وضع الآشوريين تصنيفات رائعة للمملكة الحيوانية، كما تشير الأدلة التاريخية إلى أن علماء تلك البلاد كانوا يمتلكون الآلات البصرية التي يستخدمونها في نقش الأحرف على الرقاع والاسطوانات.[١]

وكان يتولى التعليم فئة يقال لهم الكتبة وهم ترجمان المراسلات الرسمية والخاصة والشؤون السياسية والأعمال الفضائية وهو معني بكل ما يتعلق بمتطلبات العبادة وأفلاكها كالسحر والعرافة والتنجيم لأنه الوسيط بين الإنسان والإله، وكان الكتبة من الكهنة إلا أن هذا لا يعني أن جميع الكهنة كتبة وكان تعليم الكتبة الكلدانيين يعد وظيفة أو تقليد عائلي يرثه الابن عن أبيه وبما أن مدربيهم هم أهاليهم فهم ينعمون بتعلم المعارف كلها دون تحفظ أو قيد وهم يتعودون على المدارس منذ الصغر فهم يتقدمون بوضوح في التنجيم سواء كان ذلك بسبب تعلمهم منذ الصغر أم لان مرحلة التعليم لديهم أطول، وتتيح لنا الأساليب البابلية الصحيحة لتعليم الكتبة التعرف على مشاكل التعليم فقد كان الطالب

---

[١] عبد الدايم، عبد الله، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٥ م، ص٣٩ –٤٠.

يبدأ دروسه وهو صغير جدا وكان ينهض مع الفجر باكرا ويغتسل ويتناول طعام الفطور ويأخذ معه طعام الغداء ويسرع إلى المدرسة،وان وصل متأخرا فعليه أن يندس في مقعده دون أن يلحظه المعلم ن وإلا نال التوبيخ والقصاص مع تذكيره بأخطائه السابقة أيضا كقيامه دون طلب إذن، أو عدم احترامه معلميه أو انتقاد عملهم ولا تمر هذه الأمور عادة دون ضرب بالعصا. وتتكون الصفوف من مقاعد من الطابوق المرصوف بكل انتظام مهيأة لجلوس الطلبة فوقها، كما كان في متناول أيديهم أوان فخارية مدورة يعجنون فيها الطين بالماء الموضوع في اكواز طينية صغيرة مخصصة لهم، ويستنسخون بقصبة محددة ومحدبة الأمثلة التي يعطيها لهم المعلم، وذلك أما بكتابة أنموذج واحد لهم، أو بكتابة المثال لكل واحد منهم في أعلى ألواحهم التي يمسكونها باليسار، أو يكتبون أحيانا على جلد الغزال، وفي حالة نجاح الطالب في تمرينه كان عليه أن يخلط اللوح ويستأنف الكتابة من جديد وكانت العبارات قصيرة وذات معنى ليسهل على الطالب حفظها بسرعة. وكان على التعليم أن يتحاشى الغرابة مهما كان نوعها ولا ذكر في دروسهم للخصوصيات والجزئيات مهما كان نوعها، لأنهم يظنون أن العدو متستر دوما ويتعذر الوصول إليه، ولم يكن التعليم المدرسي يعرف تغييرا لأنه لا يسمح للكتبة أن يبرهنوا عن مواهبهم الخاصة، لذا فنادرا ما يضيف الناسخين ابتكارات شخصية، وحين تغدو هذه الابتكارات مقبولة فإنها تدخل في عداد المعارف العامة وبتناقلها الخلف، وكانت الصفوف مقسمة تقسيما متمايزا لكل صف مواده الثابتة وحين يتم اختيار المادة من قبل المتعلم فان تعلمها يقتضي سنوات عديدة، غير أن مشاق هذه المهنة لم يكن جزافا لان أصحابها ينالون تقديرا واعتبارا كبيرين ي المجتمع، لذا نرى الكتبة وخاصة من هم من سلالة ملوكية يتمتعون بمنزلة اجتماعية تفوق الحدود.

وثمة نصوص ذات طابع تهكمي يرد فيها وصف بيئة الكتبة والطلبة عرف منها أن الطالب المبتدئ يعهد به إلى شخص اكبر منه ليكون له بمثابة الأخ الكبير وكثيرا ما لاستسيغ المعيد هذا الطالب الصغير لذا الصغير لايحب المعلم وينتهي الأمر بالضرب ولا يتم كسب رضى المعلم إلا بمحاولة دعوته لوليمة عشاء وعند قدومه يجد الهدايا بانتظاره، أما موضعه فيحتل موضع الصدارة في المنزل ويشكر الأب معلم ابنه على أتعابه التي يتجشمها في تربيته ويقوم الجميع بعد هذا المشهد برفع الدعاء إلى آلهة الكتابة والتعليم، فقد كان الكاتب يضع نفسه تحت حماية الآلهة (نيسابا) فهي آلهة العلم ولاسيما علم العدد.[١]

---

[١] روثن، مرغريت، مصدر سابق، ص ٣٥- ٣٧.

ولم يقتصر التعليم في المدارس على تعلم العلامات المسمارية واللغتين السومرية والاكدية فحسب بل شمل العديد من العلوم والمعارف ا كالهندسة والحساب والطب والفلك. وعلى الرغم من انه يصعب في الوقت الحاضر تعيين بناء المدرسة من بين الأبنية الكثيرة المكتشفة إلا انه يمكن الاستدلال عليها من بعض مخلفات المدرسة كالنصوص المدرسية التي أعدها الطلبة والمدرسون كما أن كانت بعض أجنحة العابد والقصور تستخدم كأماكن للتعليم والتدريب.[١]

أما في علم الجغرافية، فقد ذكرت النصوص المسمارية نوعا من الرقم الطينية يستعمل دليلا لطريق الحملات العسكرية أو الرحلات عرف ب (ركس كر) ومن المحتمل انه يمثل خريطة للطريق للمناطق المراد الزحف نحوها ولعل أقدم ما وصلنا من معلومات عن قياس المساحات وتحديدها يعود الى منتصف الألف الثالث ق.م إذ عثر على نصوص تخص القياسات وأخرى تبين مساحات حقول مربعة واسعة وبعض المسائل الهندسية الأخرى، وكان التخصص في رسم الأراضي ومسحها وإعداد مخططات لها بعد من العلوم الصرفة المهمة آنذاك، كما كان يدرج ضمن المناهج الأساسية في مدارس بلاد وادي الرافدين القديمة فقد أشير إليه في النصوص التعليمية كثيرا، وكذلك حملت ذكريات الكتبة في أيام دراستهم الأولى الكثير في هذا الخصوص، ومن ذلك ما ورد في احد النصوص منها عن توبيخ موجه الى احدهم: أنت ذاهب لتقسيم الأراضي، ولكنك غير قادر على تقسيمها لأنك حين تريد أن تمسح الحقل لا تستطيع أن تمسك بالشريط ولا بأداة القياس لأنك لن تستطيع أن تدق أوتاد الحقل لعجز إدراكك عما أنت فاعل[٢] ومع انتشار التعليم، إلا انه ظل مقصورا على طبقة محدودة من الناس من المتمكنين اقتصاديا على تغطية نفقات الدراسة الغالية، والتي كانت تستغرق سنوات طويلة. لذا كان المتعلمون من الكتبة يحتلون مراكز اجتماعية مهمة وقد يتقلدون وظائف حكومية مرموقة. وتشير النصوص المسمارية الى العشرات من الكتبة وجلهم من الرجال ومع ذلك فقد وردت أسماء بعض الكاتبات

ومن المؤلفات المدرسية التي خلفها البابليون ما يمكن أن نسميه اليوم بالمعاجم اللغوية، وهي عبارة عن جداول بالعلامات المسمارية ومعانيها باللغتين السومرية والاكدية، وهناك معاجم أخرى خاصة بشرح الكلمات وشرح قواعد اللغة السومرية أو الاكدية وأخرى جداول بأسماء الحيوانات والنباتات

---

[١] الدباغ، تقي،وآخرون، مصدر سابق، ص٢٢٣.

[٢] الجميلي، عامر عبد الله، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، دهوك، ٢٠١١ م، ص ١٩٦.

والأحجار وأعضاء جسم الإنسان وغيرها وكان على المتعلمين حفظ مثل هذه الجداول والاستعانة بها عند القراءة والكتابة.[١]

المبحث الرابع:

المظاهر العلمية والتربوية لحضارة وادي الرافدين:

إما ابرز المظاهر العلمية التربوية لحضارة وادي الرافدين فيمكن إدراجها كالآتي:

١-الخط المسماري

شاع استعمال مصطلح الكتابة المسمارية للدلالة على الخط المستعمل في بلاد وادي الرافدين، وقد أطلق هذا المصطلح على الكتابة في مرحلتها المتطورة عندما أخذت العلامات تأخذ شكل المسامير بسبب النهاية المثلثة لقلم القصب ومن الصعب تعميمه على الكتابة في مراحلها الأولى عندما كانت العلامات مجرد صورة للأشياء التي يراد التعبير عنها وهي المرحلة التي عرفت بالكتابة الصورية.

أن ظهور الكتابة في بلاد سومر إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى الحاجة الملحة لوجود وسيلة لحفظ سجلات بواردات المعبد المتزايدة وبمدخولات دويلة المدينة السومرية التي أصبح اقتصادها في نمو مستمر. وقد سميت الحقبة التي شهدت ظهور الكتابة بمظاهرها الأولى بالعهد الشبيه بالكتابي لأنه يتميز بظهور الكتابة في أطوارها الأولى ومحدودية استعمالها وانتشارها وقد مرت الكتابة في هذا الدور بالمراحل الآتية:

أ – الطور الصوري: التعبير عن الشيء برسم صورته

ب – الطور الرمزي استنباط معان جانبية من صورة الأصل كاستخدام العلامة الدالة على الشمس للتعبير عن معان مشتقة منها مثل (لامع – ساطع – مشرق)، وبالمثل للتعبير عن كلمة (يوم) لان شروق الشمس وغروبها يمثلان يوما.

ج – الطور الصوتي وفيه استعملت العلامة ليس من اجل معناها الصوري أو الرمزي، وإنما من اجل صوتها فقط، وبهذه الوسيلة أمكن كتابة أسماء الأعلام والأشياء على هيئة مقاطع صوتية وقد تطورت الكتابة تدريجيا لان مادة الطين مناسبة جدا لكتابة العلامات بشكل خطوط مستقيمة وذلك بضغط القلم قليلا على وجه الرقيم وبذلك صارت العلامات تتكون من خطوط مستقيمة أفقية

[١] الدباغ، تقي وآخرون،١٩٨٣م، مصدر سابق، ص ٢٢٤.

وعمودية ومن زوايا مائلة، كما أن القلم المثلث أعطى هذه الخطوط رؤوسا تشبه المسامير وقد بلغ عدد العلامات المستعملة (٣٠٠٠) علامة اختزلت بمرور الزمن لتصبح (٨٠٠) علامة. وكان السومريون في جنوبي وادي الرافدين أول من استنبط هذا النمط من الكتابة، بدليل أن أقدم النصوص الكتابية التي وجدت لحد ألان مدونة باللغة السومرية.

واستمرت الكتابة السومرية بالانتشار من أقصى شمال البلاد إلى جنوبها، إذ انتشر النساخ يكتبون العقود والرسائل ومختلف الوثائق، وقد احتلت المدارس دورا بارزا في عملية التعليم، ونشر الثقافة والعلوم السومرية والبابلية، وبقي الخط المسماري متداولا كوسيلة للتدوين في بلاد وادي الرافدين إلى عصور متأخرة جدا. فقد عثر على نصوص فلكية يعود تاريخها إلى سنوات (٣٥ و١٠ و٩ و٦) قبل الميلاد.[١]

٢- ملحمة كلكامش:

تعد ملحمة كلكامش عمل أدبي راقي وكان الإنسان محور تلك الملحمة، وقد شملت الكثير من النصوص التي تهتم بالإنسان، وتعد من أشهر الملاحم الشعرية في تاريخ آداب الشعوب القديمة، وقد ذاع صيتها وانتشرت نسخ عديدة منها في أنحاء واسعة من الشرق الأدنى القديم، وترجمت من البابلية إلى لغات عدة كالحثية والحورية، ومما زاد من روعتها تناولها الإنسان موضوعا لها وتتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوي مثل الإنسان والطبيعة، الحب والمغامرة، الألفة والصداقة والصراع، عثر عليها ضمن المؤلفات المحفوظة في مكتبة آشور بانيبال في نينوى.[٢]

ولابد لنا من الإشارة هنا أن ملحمة كلكامش قد لعبت دورا بالغ الأهمية في انتشار الأدب العراقي وساعدت على جعله مؤثرا في آداب الأمم القديمة، فقد عثر على أجزاء منها في (بوغاز كوي) عاصمة الإمبراطورية الحثية، ويذكر أن معظم رقم الطين التي تتألف منها الملحمة وعددها اثنا عشر رقيما وجدت في مكتبة آشور بانيبال في نينوى. ومما لاشك فيه فان هذه الملحمة تعد بحق واحدة من أشهر ما أنجزه الفكر الإنساني في العصور القديمة.

وتستمد هذه الملحمة شهرتها من أنها تناولت موضوعا هو القاسم المشترك بين كل المخلوقات على وجه الأرض ألا وهو الموت. إذ نجد بين تشبث البطل كلكامش بالحياة ومحاولته إيجاد وسيلة

---

(١) الدباغ، تقي وآخرون، ١٩٨٣م، مصدر سابق، ص ٢٧٣ -١٧٤.

(٢) ألحديثي، صبري وآخرون،ج، مصدر سابق، ص ٣٣٨.

للخلاص من الموت صورا من الحياة بتناقضاتها المختلفة، وعلى الرغم من أنها تنتهي بخيبة أمل شديدة لكلكامش عندما وجد انه يستحيل عليه الخلود جسديا، فان ما يخف من هذه الخاتمة المأساوية هو أن الملحمة تقدم بديلا آخر يستطيع الإنسان عند الأجيال اللاحقة بفضل منجزاته ومآثره.[١]

٣- قوانين حمورابي:

يعد حمورابي من ملوك بابل كرس أول خمس سنوات من حكمه في بناء المعابد، ويحتمل انه قام بالتجهيز للأعمال الحربية ضد أعدائه، ويظهران قوانين حمورابي اتخذت الصيغة النهائية وأعلنت في السنوات الأخيرة من حكمه كخاتمة لإعمال حياته التي وحدت بلاد وادي الرافدين سياسيا وقانونيا وأيديولوجيا، وتتألف قوانين حمورابي التي أصدرها سنة ١٧٧٠ ق.م مواد متنوعة، وسنتناول هنا ما يتعلق بشؤون الأسرة وعلى النحو الأتي:

كانت المرأة في بعض الحالات ذاتية القانون وقبل كل شيء هي كاهنة، ولم تختلف تقريبا في مجال قانون أملاك الكاهنات عن الرجل ومن الممكن أن تكون المرأة المتزوجة في بعض الحالات والمنفصلة عن زوجها (حصلت من بيت والدها)على ممتلكات، وأمنت لنفسها ديون زوجها، واستخدمت الأرامل قانون الأملاك، وعرفت لنا حالات من الوثائق، وهي عندما برزت المرأة كمتعاقد في صفقات عديدة، ولكن باستثناء الكائنات، وقد برزت المرأة في هذه الصفقات سوية مع أزواجهن وإخوانهن وأبنائهن، وأصبح للأطفال في العادة حقوق كاملة، وذلك بعد موت الأب فقط، حيث ورثوا أملاك العائلة، ولكن عرف لنا حالة وهي انه عندما أصبح الأب طاعنا في السن، نقل أثناء حياته أملاكه إلى أبنائه مقابل الالتزام من جهة الأبناء أن يعطوا الأب نفقة معينة ما دام حيا، وأحيانا عقدت مثل هذه الاتفاقات بين الأبناء والأمهات، ومن الواضح انه تم نقل حصة الأرامل والصداق وهدايا الزواج إذا كانت موجودة إلى الأبناء، أما بخصوص قضايا الحقوق الأسرية، وعد الزواج شرعيا إذا توفر عقد الزواج فقط، وعقدت هذه العقود في أغلبية الحالات شفويا، وابتعدوا عن كتابة العقد على مايبدو، إلا إذا كانت هناك ضرورة لتسجيل شروط ما خاصة، ولم يكن على أراضي مملكة لارسا عقود زواج كتابية، ونلاحظ من الشواهد الأدبية أن عقد الزواج رافقه أيضا مراسم مميزة من حيث التلفظ بعبارات معينة، وهكذا فان العروس تحدثت، أنت فقط ستكون زوجي، وأنا سأكون زوجتك وعد كبير العائلة مالكا ليس لممتلكات الأسرة فحسب، وإنما جميع أفراد الأسرة، ولكن في بعض الحالات أن الزوجة كان بإمكانها أن

---

[١] الدباغ، تقي وآخرون، مصدر سابق، ص ص٢٨١- ٢٨٢.

تمتلك حقوقا لممتلكات معروفة، وكان الزواج عمليا أحادي للمرأة فقط، ويستطيع الزوج أن يعيش مع أمه، ويمكن أن يكون أطفال هذه الأمة شرعيين بواسطة أمر شفوي.[١]

وإجمالا يمكن تصنيف قوانين حمورابي الى عشرة أنواع هي:

١- مواد خاصة بالدعاوى وتشمل الاتهام وشهادة الزور وتغيير القاضي حكمه بعد إصداره.
٢- مواد خاصة بالأموال، وفيها مواد تخص السرقات وخطف الأطفال وإيواء العبيد.
٣- مواد تتعلق بالعقار والأراضي الزراعية ومسؤوليات الفلاحين والمزارعين، وأخرى خاصة بحوادث الري والبستنة والرعي.
٤- القضايا التجارية وشملت المواصلات والحانات ومحلات السكن والديون والرهن والأمانات والودائع.
٥- الأحوال الشخصية وفيها قضايا الزواج والطلاق والإرث وتبني الأطفال والزنى.
٦- التعديلات والمخالفات كالاستهانة بالأب والإسقاط.
٧- المواد الخاصة بأصحاب المهن والمتعلقة بالأطباء والبياطرة والحلاقين والبنائين والملاحين وصناع السفن.
٨- أحكام خاصة بالماشية والفلاحين والآلات الزراعية وتأجير العربات والحيوانات والعمال.
٩- الأسعار والأجور التي حددت فيها أجور الصناع وإيجار السفن.
١٠- العبيد.[٢]

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير الى أن مسلة حمورابي اكتشفت في منطقة شوش عاصمة عيلام سنة ١٩٠١ م على يد فرقة بحث فرنسية وكانت باللغة الاكدية لغة بابل وترجمت الى الفرنسية، وقد توالت دراستها في معظم اللغات الأوربية الحديثة وقد وجدت هذه النقوش على حجر اسود يبلغ ارتفاعه مترين نقل الى متحف اللوفر في باريس فيما بعد.

٤- مكتبة آشور بانيبال:

لم يكن أشور بانيبال صيادا فحسب،بل كان محاربا غزا العديد من البلدان ومنها مصر ورغم ذلك كان يفتخر كثيرا بقدرته على القراءة في عصر كان تعلم الكتابة المسمارية فيه حكرا على النساخ، وكان يملك مكتبة كبيرة جدا من الألواح كان يجمعها له رجال من جميع أنحاء البلاد

---

(١) افانا سيفا ف.ك، ديكانوف، مصدر سابق، ص ص ٤٠٧ – ٤١٥.

(٢) الدباغ، تقي وآخرون، مصدر سابق، ص ص ٩٥ -٩٦.

خاصة في بابل وهذا اللوح (أسفلا) هو النسخة البابلية لقصة الطوفان الذي يقارب قصة الطوفان نوح كما يحكى في سفر التكوين في العهد القديم، وحينما احترق قصر آشور بانيبال في عصر سقوط الإمبراطورية عام ٦١٢ قبل الميلاد انهارت المكتبة الغرف السفلية وأدى ذلك الى تحطيم الألواح واحتراقها،إلا إن كمية هائلة من الألواح نجدت من الحريق وهي معروضة الآن في المتحف البريطاني.[١]

٥- جامعة بابل:

كانت مدينة بابل مركز نشاط فكري حافل وكان الملك نفسه يرعى في قصره مدرسة عليا تدرس اللغات والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات تنفق خلالها الدولة على الطلاب وبعد انتهاءهم من الدراسة يقوم الملك بامتحانهم بنفسه بدقة ليختبر ذكائهم وحكمتهم وتذكر الشواهد التاريخية أن النبي دانيال وأصحابه تلقوا علوم زمانهم في هذه الجامعة.[٢]

وختاما ينبغي الاعتراف أن حمورابي من خلال قوانينه عمل على توحيد مختلف اثنياته وحدد فيها حقوق المواطن البابلي فرديا وجماعيا فهو يحمي الضعيف من القوي والفقير من الغني وحريات الأفراد والملكية الفردية واقر للمرأة أهلية كاملة.[٣]

وبقي قانون حمورابي أكمل وانضج قانون مكتشف حتى الآن، فهو القانون الوحيد الذي وصل بصيغته الأصلية في حين القوانين الأخرى السابقة له واللاحقة عبارة عن نسخ ثانية من القوانين الأصلية.

اثر حضارة وادي الرافدين في الحضارات الأخرى:

فيما يأتي عرضا موجزا يوضح انتشار حضارة وادي إلى الدول الأخرى.

١- لم ينحسر الخط المسماري في بلاد وادي الرافدين فحسب بل انتشر إلى مناطق أوسع، فتأثرت به الأقوام التي عاشت على أطراف العراق والبعيدة عنه فاقتبست الكثير منه وتغذت من معينه، إذ انتقل إلى عيلام التي كانت تمثل جسرا لنقل الثقافة العراقية إلى الأقوام الإيرانية وقد

---

(١) الموسوي، هاشم عبود، مصدر سابق، ص ص ١٤٦ – ١٤٧.

(٢) عبد الدايم، عبد الله، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٣) الموسوي، هاشم عبود، مصدر سابق، ص ١٠٤.

بدا ذلك واضحا بالمنحوتات المكتوبة بالخط المسماري التي عثر عليها في مواقع مختلفة من إيران.

٢- وقد وجد المنقبون نص كتابي مدون بالخط المسماري في مدينة حلب وجدت محفوظة ومنضدة فوق رفرف من الطين ملاصقة للجدران وهي شبيهة بطريقة حفظ الرقم عند العراقيين القدامى.

٣- وتشير المدونات الكتابية التي عثر عليها في آسيا الصغرى إلى انتشار الخط المسماري إلى المستعمرات التجارية المجاورة وكانت على شكل رسائل متبادلة بين التجار بأعمال الصيرفة والصفقات التجارية والكافلات والأحوال الشخصية وقضايا حياتية أخرى.

٤- فضلا عن ذلك تشير النصوص المسمارية التجارية أن رجال الأعمال في بلاد الأناضول كانوا يجيدون اللغة الآشورية ويفضلون كتابة الرسائل إلى وكلائهم في آشور، كما انتشر الخط المسماري بين والحوريين والميتانيين إذ وجدت العديد من الرقم الطينية بالخط المسماري حول عقود قضائية تخص الزواج والتبني والإرث وعقود اقتصادية وإدارية مختلفة، أما كتاب المصريين فكانوا يجيدون اللغة الاكدية بلهجتيها البابلية والآشورية، كما عثر على رقم تحتوي نصوص تعليمية كتدريب المبتدئين على القراءة والكتابة.

٥- وفي فلسطين أصبح الخط المسماري وسيلة للتدوين في الأراضي الفلسطينية من خلال الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة.

٦- كما عثر على رقم طينية في بلاد أرمينيا مدونة بالخط المسماري في مواضيع مختلفة كالعقود الاقتصادية والإدارية والقضائية.

٧- كما أن الإغريق الذين سكنوا بابل في القرن الثاني قبل الميلاد حاولوا تعليم أولادهم اللغة البابلية،كما أرسلوا أبنائهم إلى المدارس البابلية وقد وجد ت الرقم التي تتضمن نصوصا تعليمية وتمارين بالخط السومري والاكدي وعلى ظهر الرقيم ما يقابلها بالخط الإغريقي وقد وضعت لتدريس المبتدئين على القراءة والكتابة واللغة.(١)

٨- وقد ساعد الخط المسماري واللغة الاكدية على انتشار تراثنا الثقافي والحضاري في معظم أجزاء الشرق القديم، فقد انتقلت العديد من المفاهيم والمعتقدات الدينية والنتاجات الأدبية مثل عبادة الإله تموز، إذ ظهر ما يشابهها في المعتقدات الخاصة بالإله بعل عند الكنعانيين والإله اوسيريس عند المصريين كما ورد ذكر هذا الإله في التوراة.

---

(١) ألحديثي وآخرون، مصدر سابق ص ٢٣٦.

٩- أما بالنسبة للأدب فقد انتقلت ملحمة كلكامش إلى الحثيين والحوريين واليونانيين، وقد ترجمت الملحمة إلى لغات أخرى كاللغة كالحثية والحورية وانتقل الأساطير وقصص الملاحم إلى بلدان الشرق القديم.

١٠- وبالنظر لسعة معرفة العراقيين القدماء بعلم الفلك كان اليونانيين على اتصال دائم بالمعارف البابلية حتى أن كتابهم ذكروا أسماء بعض الفلكيين البابليين، كما قصد الكثير من الرياضيين والفلكيين اليونان العراق لينهلوا من ينابيع المعرفة هناك.[١]

١١- وضع سكان بلاد وادي الرافدين حجر الأساس في مجال الجغرافية ويعود لهم الفضل في رسم أول خريطة عرفها العالم، فعمدت الشعوب الأخرى إلى الإفادة من هذا التراث الضخم والإضافة إليه، وان الأفكار الجغرافية التي انتقلت إلى بلاد اليونان وبقية أجزاء أوربا كانت عن طريق الفينيقيين الذين اقتبسوا معلوماتهم من دون شك من سكان بلاد وادي الرافدين بدلالة استعانة الآشوريون بهم وبخبراتهم، ولا سيما في مجال بناء السفن والملاحة في البحار لتوسيع معلوماتهم الجغرافية عن البلاد التي فتحوها، ومن الثابت أن اليونانيين لم يقوموا برسم الخرائط بل اقتبسوها من البابليين، لذا كانت بداياتهم للخرائط تكرارا لما ورثوه من البابليين،والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب الرابع لهيرودتس إلى أن الخرائط المدورة للعالم ومنها خريطة العالم البابلية المدورة قبل تزويدنا بوصفه للعالم المسكون.[٢]

١٢- وعن أهمية قوانين حمورابي يقول احد الباحثين أنها تمثل أهم مرجع قانوني في بلاد وادي الرافدين وظهر لها اثر في بلاد الشرق كلها ذلك أن بعض أحكامها كانت مطبقة في صورة تقليد وعادات عرفية طيلة عصر الاحتلال الإغريقي مما جعلهم يشبهون قانون حمورابي وأثره في شرائع الشرق الأدنى بقانون نابليون في العصر الحديث وذلك لأنه وضع الحلول الجديدة التي توافق التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي واجهت المجتمع البابلي فيما بعد.[٣]

١٣- واستطاع الفلكيون البابليون أن يتنبأوا عن وقوع بعض الظواهر الفلكية مثل الخسوف والكسوف وضبط التقويم السنوي والفصول الأربعة وأطوال الليل والنهار بحسب الفصول، وقد انتقلت تلك الطرائق البارعة الى اليونان. وقد بلغ الفكر الفلكي البابلي من الشهرة لدى اليونان ما جعلهم يطلقون عليه مصطلح (العلم الكلدي).[٤]

---

(١) ألحديثي، صبري وآخرون، مصدر سابق، ص ٢٤١.

(٢) الجميلي، عامر عبد الله، مصدر سابق، ص ٣٠١.

(٣) الموسوي، هاشم عبود، مصدر سابق، ص.

(٤) الدباغ، تقي وآخرون، مصدر سابق،ص ٢٣٢.

المصادر:

- افانا سيفا ف.ك،ديكانوف ي. م وآخرون ٢٠١٢، تاريخ العراق القديم،نشوء المجتمعات الطبقية القديمة والمواطن الأولى لحضارات العبودية، ترجمة د. محمد العلامي دار الفكر، عمان.
- البدر، سليمان سعدون، (د.ت)، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم،منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد. بدون دار نشر.
- إسماعيل، بهيجة خليل، حضارة العراق، ج١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥
- الجميلي، عامر عبد الله،٢٠١١، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، دهوك.
- حامد، إسماعيل، ٢٠١١، الحضارة الفرعونية أم الحضارات، مكتبة النافذة، الجيزة
- ألحديثي، صبري وآخرون، ١٩٨٥. حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد
- الدباغ، تقي، وآخرون، ١٩٨٣. العراق في التاريخ، بغداد،ج١،دار الحرية للطباعة، بغداد.
- روثن، مرغريت، ١٩٧٠. علوم البابليين، ترجمة يوسف حبي، دار الرشيد للنشر بغداد.
- سليم، احمد أمين،٢٠٠٩. دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر، العراق، إيران، دار النهضة العربية، مصر.
- صالح، عبد العزيز، ٢٠٠٦، حضارة مصر القديمة وآثارها، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
- عبد الدايم، عبد الله، ١٩٧٥. التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت.
- محمد، عبد الهادي، ٢٠١١. حضارات وممالك بلاد وادي الرافدين، مركز الراية للنشر والتوزيع، القاهرة.
- محمود، حربي عباس عطيو و حسان حلاق.١٩٩٥، العلوم عند العرب، أصولها وملامحها دار النهضة العربية، بيروت.
- الموسوي، هاشم عبود، ٢٠١٣، موسوعة الحضارات القديمة، دار الحامد للنشر، عمان.
- نخلة، منى يوسف، (د.ت)، علم الآثار في الوطن العربي، منشورات جروس برس، لبنان.

- النشار، مصطفى حسن، ٢٠١١، تاريخ العلم عند العرب، دار المسيرة، الأردن.
- يحيى، لطفي عبد الوهاب،٢٠٠٩، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت.